﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾ [فاطر: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النّاسُ قِسمانِ أمـــامَ دعـــوةِ الشَّيْطانِ

لَمّا أنْهَى تعالى البيانَ في غرضِ الشّيطانِ إلى مُنْتهاهُ؛ نبَّه على ما حكَمَ به هو سبحانه في أشْياعِه بهذهِ الآيةِ[1]، ولَمّا أجْمَل تعالى أتْباعَ الشّيطانِ بأنَّهم حِزْبُه، وسكَت السّياقُ عن أضداهِم الَّذين اتَّخذوه عدوًّا فصَّلَتْ هذه الآيةُ حِزبَه، وأفصحَتْ بالفريقِ المُقابِلِ لهُم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَذَابٞ﴾: (عذب) أَصْلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَريمَةِ[2]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[3]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ[4]، والمُرادُ بِالعَذابِ في الآية: الإيجاعُ الشّديدُ، وهو عذابُ الآخرة.

2) ﴿شَدِيدٞۖ﴾: (شدّ) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، وفُروعُهُ تَرجِعُ إليه، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ[5]، والشِّدَّةُ القوَّةُ والجَلادَة، والشَّديدُ الرَّجُلُ القَويُّ[6]، والشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ[7]، وهيَ نَقيضُ اللّينِ تَكونُ في الجَواهِرِ والأَعراض، والجَمْعُ شِدَدٌ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(2) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/ 10.
(3) الراغب، المفردات: (عذب).
(4) الخليل، العين: (عذب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شد).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شد - شدد).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (شد).

وشَيْءٌ شَديدٌ: بَيِّنُ الشِّدَّةِ[1]، والمرادُ بالشَّديد في الآية: القويُّ الإيلامِ الَّذي لا يُقادَر قَدرُهُ.

3) ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على التَّغْطيَةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفرُ والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[2]، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ الله هو أنْ يصونَ العبدَ مِن أنْ يمسَّهُ العذاب[3]، وعليه فالمُرادُ بالمغفرة في الآية: سَتر الذُّنوبِ بعدمِ الحِسابِ عليها.

4) ﴿وَأَجْرٌ﴾: (أجر) الجَزاءُ على العَمَلِ[4]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجيرُ: فَعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيء بالأجرة[5]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه أقسامَ النّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: الذين كفروا بسيرِهم وراءَ الشّيطانِ وقبولِهم تغريرَه وخِداعَه لهم عذابٌ شديدٌ لا يُقادَر قَدرُهُ، والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ الخالِصةَ للّهِ تعالى، والموافقةَ لِشَرعِه لهم مَغفرةٌ مِنَ الله لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ[6].

الأجرُ لا يَثبُتُ إلّا باتِّصافِ الفاعِلِ بوصفَينِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) الراغب، المفردات: (أجر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 332، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 534، 535، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 304.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع مطلع الآية بالنسبة لما قبلها:

مِـن شـأنِ الإجـمـالِ أنْ يُشَوِّقَ النَّفْسَ للتَّفصيلِ

لَمّا حذَّر تعالى النّاسَ كلَّ النّاسِ مِن غرورِ الحياةِ الدُّنيا والشّيطانِ، وقرَّرَ أنَّ للشّيطانِ حِزْبًا، وسكَت السّياقُ إلى هذه الآيةِ عن ذِكْرِ أضدادِهم؛ كانَ مِن شأنِ ذلك أنْ يُحرِّكَ المُتلقّينَ للسُّؤالِ عن حِزْبِ الشّيطانِ وحِزْبِ الرَّحْمنِ وجزائِهما، فجاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .. الآية، مصرّحًا لهم بأنَّ حزبَ الشّيطانِ هُمُ الَّذينَ كفروا وجزاؤُهم العذابُ الشّديد، وأنَّ الَّذين آمنوا هم الفريقُ المقابلُ لهم وجزاؤُهم المغفرةُ والأجرُ الكبير؛ فموقعُ هذه الآية استئنافٌ بيانيٌّ.

وذهبَ ابنُ عاشورٌ إلى أنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ يفيدُ مُفادَ الفَذْلكة والاستنتاجِ مِمّا تقدَّمَ، وأنَّ هذا الاستئنافَ يومئُ إلى أنَّ الّذين كفروا هم حزبُ الشّيطانِ بطريقةِ قياسٍ مطويٍّ؛ لعكوفهم على مُتابعته؛ وإنْ لم يُعلنوا ذلك؛ لاقتناعٍ منهم بملازمة ما يُمْليه عليهم، وأنَّ المؤمنين العُصاة ليسوا مِن حزبه؛ لأنّهم يعلمونَ كيدَه، ولكنَّهُم يتَّبعون بعضَ وسوستِه، وهم مع ذلك يلعنونه، ويتبرَّأون منه[1]، وقولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يؤيِّدُ أنَّ عصاةَ أهلِ الإيمانِ ليسوا مِن حزبِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ:

التَّعبيرُ بالموصولِ يشيرُ إلى علّةِ الحُكْمِ معَ الإيماءِ إليه

عبَّر القرآنُ عن أتْباعِ الشّيطانِ بـ(الاسم الموصولِ) في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ ليُنبِّهَ على مُتابَعَتِهم للشّيطانِ؛ كما خطَّطَ وأرادَ؛ فهم قومٌ أعلنوا المعصيةَ، وجهَروا به، فعُرفوا وشُهِروا بها؛ وهذا ملمحٌ مأخوذٌ مِن أنَّ صِلَةَ الموصولِ ينبغي أنْ تكونَ معلومةً للمُخاطَبِ، أوْ كالمعلومةِ له؛ إذا تلقّاها، وليلفتَ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

المقصدِ الأعظمِ للشّيطانِ؛ ذلك الّذي إذا كانَ مِن حِزْبِه كانوا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ ألا وهو الكفرُ باللهِ ﷻ، وللإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبر وعلَّتِه.

علّةُ التّعبيرِ بـ(الكفر والإيمان):

التَّعبيرُ بالحِزْبِ فتَحَ البابَ لذِكْرِ الكفرِ والإيمانِ

لمّا سبَق خطابُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وقرَّرَ السّياقُ أنَّ للشّيطانِ حِزْبًا، أي: جماعةً خاصَّةً تتميَّزُ بما يجعلُها تُباينُ غيرَها مِن جماعاتٍ، وكانَ ذلك منطويًا على أنَّ النّاسَ قسمانِ أمامَ دعوةِ الشّيطانِ؛ صرَّحَ هنا بأنَّ النّاسَ قِسْمانِ، هما أهلُ الكفرِ وأهلُ الإيمانِ، وذلك حَسْمٌ وفَصْلٌ في شأنِ الشّيطانِ واتِّباعِه؛ إحسانًا عليًّا إلى النّاسِ، قال الزّمخشريُّ في أمرِ الحَسْمِ: "ثمّ كشَف الغطاءَ، وقَشَرَ اللِّحاءَ؛ ليقطعَ الأطماعَ الفارغةَ والأمانيَّ الكاذبةَ؛ فبنَى الأمرَ كلَّه على الإيمانِ والعملِ، وتركِهما"[1].

ويُضافُ إلى ذلك ما ذكره ابنُ عاشورٍ مِن أنَّ الآية أشارَتْ إلى طرفيْنِ في الضَّلالِ والاهتداءِ، وطَوَتْ ما بين ذَيْنك مِنَ المراتبِ؛ ليُعْلَم أنَّ ما بينَ ذلك يَنالُهم نصيبُهم مِن أشبهِ أحوالِهم بأحوالِ أحد الفريقيْنِ؛ على عادة القرآنِ في وضْعِ المسلم بين الخوفِ والرَّجاء، والأملِ والرَّهْبةِ[2].

دلالةُ الفِعْل الماضي:

الحَسْمُ والفَصْلُ في شأنِ مُعاداةِ الشّيطانِ إحْسانٌ عظيمٌ

مِن سُنَن البيانِ القرآنيِّ أنْ ينظُمَ (الكفرَ) فعلًا ماضيًا صلةَ موصولٍ؛ للدّلالةِ على أَدنى أسنانِ الكُفر ومستوياته، وأنْ ينظُمَ الإيمانَ بهذه الصّيغة؛ للدّلالة على أَدنى أَسنان الإيمانِ ومستوياتِه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 608.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 263.

كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ والغرضُ البلاغيُّ من ذلك هنا التَّنبيهُ على أنَّ مَن كانَ منه أدنى درجةٍ ومستوىً من درجات الكفر ومستوياته فهو من حِزْبِ الشّيطانِ، وأنَّ مَن كانَ منه أقلُّ درجةٍ ومستوًى من درجاتِ الإيمانِ ومستوياتِه فهو من حِزْبِ الرّحمنِ؛ ووراء ذلك من المعنى غايةُ التَّرهيبِ والتَّنفير منَ الشّيطانِ وموافقتِه، وغايةُ التَّرغيبِ والحثِّ على موافقةِ الرّحمنِ ﷻ، كما أفادَ التّعبيرُ بالصّيغتَين الماضيتَين تحقُّقَ كُفر الكافرين وإيمانِ المؤمنين، ومن ثمَّ ترتّبَ على كليهما الجزاءُ الموافق.

سِرُّ حذفِ متعلّقِ ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿ءَامَنُواْ﴾:

يُلحَظُ في الكُفْرِ معنَى المُعاداةِ، وفي الإيمانِ عدمُها

الأصلُ أنْ يتعلَّق بالكفرِ متعلِّقٌ بواسطةِ حرفِ الجرِّ (الباءِ)، وكذلك الإيمانُ؛ وإنَّما حُذِفَ في موضعَيه في الآيةِ؛ تنزيلًا لكلٍّ من فِعْلِ الكفرِ والإيمانِ منزلةَ الفِعْلِ اللّازمِ الذي لا يتعدَّى؛ والمعنى: الّذين كانَ منهم كفرٌ، والّذين كان منهم إيمانٌ؛ تمكينًا لدلالة نَظْمِهما في صورِ الفعلِ الماضي الوارِدِ صلةً للموصولِ؛ إشارةً إلى أنَّ وقوعَ مطلقِ كفرٍ هو علامةُ حِزْبِ الشّيطانِ، وأنَّ وقوعَ مطلقِ إيمانٍ هو علامةُ غيرِ حِزْبِ الشّيطانِ؛ أي: من غيرِ تفصيلٍ، فالحذفُ واردٌ على منهاجِ الإيجازِ الذي هو من سَمْتِ بيانِ السّياقِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الحذفُ للعِلْمِ بالمحذوفِ؛ لترتبطَ آياتُ السّياقِ بعضُها ببعضٍ في أذهانِ المُتلقّينَ، أي: الّذين كفروا بنعمتِ اللّه، أوْ باللّه خالقِهم ورازقِهم؛ فالمآلُ واحدٌ، والّذين آمنوا باللّه خالقِهم ورازقهم.

دلالة اللّامِ وما تؤول إليه:

العذابُ الشَّديدُ لازمٌ لهم لا محالةَ

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لامُ الاختصاصِ، وهيَ التي تتضمَّنُها الإضافةُ؛ وفي ذلكَ مع ملاحظةِ القصرِ الّذي في الجملة

إبلاغٌ في تقرير العذابِ لأهل الكفرِ؛ كأنَّه يُقابِلُ وصْفَ العذابِ بالشِّدَّةِ؛ أي: كأنَّه يُلاحِظُ شِدَّةَ العذابِ؛ وفي هذا مِن ترهيبِ كلِّ عاقلٍ مُنْصفٍ لنفسِه أوَّلًا ما فيه، ودلالةُ (اللّام) على الاختصاص تفيدُ أنَّ العذابَ خُلِق من أجلِهم، ففيه معنى الغرضيّة، مع دلالةِ التّهكُّم والاستخفاف بمآلِهم؛ إذِ التّملُّك إنَّما يكونُ لِما يُملكُ دونَ العذابِ وآلامِه.

نُكتةُ تقْديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

قدَّمَ القرآنُ الحكيمُ المسنَدَ على المسنَدِ إليه وصفتِه في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ للدّلالة على قَصرِ العذابِ الشّديد عليهم، أي: على الَّذين كفروا؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وكان مِنَ الممكن أنْ يقولَ القرآنُ: (الذين كفروا يُعذبون عذابا شديدا) ونحوَ ذلك مِنَ التَّراكيبِ وصور المعاني؛ ولكنَّه بنَى الجملةَ على القَصْر؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييز، والقَصْرُ تَشْديدٌ في تقريرِ الحُكْم؛ وهو بهذا يُلاحِظُ شِدَّةَ عداوةِ الشّيطانِ التي غفَل عنها أفرادُ حِزْبِه؛ فاتَّبَعوه وأعانوه على تحقيقِ هدفِه، والتّوكيدُ الذي ينطوي عليه أسلوبُ القصرِ إبلاغٌ في التّرهيبِ مِنَ الكفرِ والشّيطانِ؛ بعدَما يُحقِّقُ المعنى في الأنْفُسِ؛ فيزيدُها قلقًا ورُعبًا.

الجزاءُ مِن جِنْسِ العملِ، ومُطابِقٌ لهُ!

علّةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ منكّرًا:

عبَّر القرآنُ في تقريرِ جزاءِ الذين كفروا بالعذابِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لإبرازِ شِدَّةِ الجزاءِ؛ بأنْ يكونَ تمهيدًا للوَصْفِ بـ﴿شَدِيدٌ﴾؛ لأنَّهُم نُبِّهوا على شِدَّة عداوةِ الشّيطانِ تنبيهًا بليغًا عَلِيًّا؛ لكنَّهُم لم يستَجيبوا؛ فلوحِظ ذلك في جزائهم، كما نظَم القرآنُ المسندَ إليه نكرةً لإفادة تهويلِ ذلك العذابِ، وتعظيمِه وتفخيمِه؛ إبلاغًا في التّرهيبِ مِنَ الكفرِ، والتَّنْفيرِ منه؛ فإنَّ أصلَ ذلك المعنَى حاصلٌ بالمعنَى الظّاهرِ للكلمة، ووصفُه بالشِّدَّةِ قرينةٌ على ذلكَ، وتحقيقٌ لهُ، وكذلك كونُ جملتِه اسْميَّةً.

عذابُ حِزْبِ الشّيطانِ على قدرِ جرمِهم

دلالةُ الاسميَّةِ في الجملة:

مِـن شِـدَّة العـذابِ ثبوتُه وديمومتُه

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ متكوّنٌ من جارٍّ ومجرورٍ خبرٌ مُقدَّمٌ، ومبتدأٌ مُؤخَّرٌ موصوفٌ وصفتُه، والجملةُ الاسميَّةُ خبرُ الاسْمِ الموصولِ وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ونَظْمُ إثباتِ العذابِ الشَّديدِ لهم في صورَةِ الاسميَّةِ تحقيقٌ للإثباتِ وتوكيدٌ له؛ فتزدادُ شِدَّةُ العذابِ في أنْفُسِ المُتلقّينَ مِن أهل الكفرِ خصوصًا.

نُكتةُ تقْديمِ جَزاءِ الكُفر:

إنَّـما يُعْتَنَى بالسَّقيم، لا بالصَّحيح

جاء القرآنُ في هذه الآيةِ بذِكْرَ الّذين كفروا وجزائِهم فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، مقدّمًا ذلك على ذِكْرِ الَّذين آمنوا وجزائِهم؛ للاهتمامِ والعناية بهم؛ ووجهُ ذلك أنَّهُمُ المعنيّون بهم في سياقِ السّورةِ بالدّرجة الأولى؛ إذ همُ المُكذِّبونَ رسولَنا محمّدًا ﷺ، الّذي سلّاه ربُّه وسرَّى عنه مِن أجلِ ذلك، فكانَ ذكرُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وجزائِهم مِن تمام ذكرِهم؛ ليظهَرَ البيانُ فيهم بالبيانِ في أهلِ الإيمانِ؛ مِن بابِ أنَّ التَّقابُلَ بينَ الأشياءِ والمعاني يوضِّحُها ويُمكِّنُها في النَّفْسِ؛ إحسانًا إلى المعنى المقصود وإلى المُتلقّيه جميعًا؛ قال ابنُ عاشور: "وذِكْرُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تتميمٌ بأنَّ الّذين لم يكونوا مِن حزبِه قد فازوا بالخَيرات"[1]، أي: تكملةٌ وإتمامٌ للفائدةِ، فجملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وجودُها على خلاف الظّاهر؛ لأنَّ الكلام في شأن المكذِّبين للدّعوة ورسولِها، ومِن فوائد ذِكْرِها تأكيدُ شأن العاصينَ في نفس الرّسول ونفوسِ الكافرين، ووجهُه أنَّ كلًّا مِنَ المتقابلَيْن يُظهِر حالَ الآخر ويُقوّيه في النّفس، ومن فوائده التّوطئةُ للنّفي الآتي بعدَه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.

بلاغةُ الوَصْل في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها مِنَ الموصولِ وخبرِه على نظيرِ ذلكَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ فالجملتانِ متّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنًى؛ وبينهما جامعٌ ظاهرٌ وهو تقارنُ الأضدادِ في الخيال؛ والتَّقابلُ بينَ أجزائِهما.

الوَصْلُ تَعْدادٌ للخبرِ؛ كأنَّه نتيجةٌ لِما قبله، ومِن تمامِه

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصولِ:

عبَّر القرآنُ عن مُخالفي الشّيطانِ الَّذين عرَفوا عظيمَ عداوتِه لهم؛ فاتَّخذوه عدوًّا بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ المُتلقّينَ في تطلُّعٍ وشَوقٍ لمعرفةِ خبرِ أضدادِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن بعدِ ذِكْرِهم وذكرِ جزائهم: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ فالصِّلةُ تُبرزُ لهم أهمَّ وأعظمَ وأفخمَ وأكرمَ ما يُعْرَفُ به هؤلاءِ؛ وهو الإيمانُ؛ تأسيسًا على أنَّ الموصولَ مُبْهَمٌ غامِضٌ، ووضوحُه وبيانُه يكونُ في صِلَتِه، ووراءَ هذا مِنَ المعنَى تعظيمُ الإيمانِ وتفخيمُه؛ وإنْ كانَ على أدنى مُستوىً مِن مُستوياتِه؛ على ما يُفْهِمه نظمُه فعلًا ماضيًا في صورة صلةِ موصولٍ؛ لأنَّ الإيمانَ عظيمٌ في ذاتِه؛ وفي هذا مِن كمالِ التّرغيبِ ما فيه، ولمّا كان عملُ الصّالحاتِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوفًا على جملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وكان المعطوفُ على الصِّلةِ صلةً كان في نظمِه كذلك ما في نَظْمِ الإيمانِ صلةً؛ فعملُ الصّالحاتِ مِن أجلِّ ما يُعْرَف ويُشْهر به هؤلاءِ النّاسُ مِن أهلِ الإيمانِ.

مُطلقُ الإيمانِ هوَ الفارِقُ بينَ حِزْبِ الرَّحمنِ وحِزْبِ الشّيطانِ

بلاغةُ التَّقابُلِ بين الكفر والإيمان:

القَرْنُ بين جماعتَي الكفر والإيمان في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعاطفٍ، يُقوّي تحريكَ المُتلقّين؛ للمقارنةِ بينهما؛ وفَهْمِ كلِّ طرَفٍ منهما في نورِ الآخَرِ؛ لأنَّ المُتقابلاتِ والثُّنائيّاتِ يُبرز حقائقُ بعضِها حقائقَ بعضِها الآخر؛ والضِّدُّ يُظْهِرُ

التَّقابُلُ بينَ الثُّنائيّاتِ قد يكونُ ظاهرًا كلُّه أوْ بعضُه

حُسْنَه الضِّدُّ؛ فتتمَكَّنُ المعاني الجزئيَّةُ وما يقصدُ إليه السّياقُ مِنَ الآيةِ في النَّفْسِ، وهذا إحْسانٌ إلى المعنى وإلى المُتلقّيهِ جميعًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعملِ:

العملُ يعْظُمُ بعِظَم غايتِه

عـبَّر القرآنُ الحكيـمُ بـ(العمـل) في قوله تعالـى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإشـارةِ إلى أنَّ كلَّ فِعْلٍ صالحٍ مُؤسَّسٍ على الإيمانِ يكونُ مِنَ الواحدِ مِن أهلِ الإيمانِ، مِن شـأنِه أنْ يكونَ دليلًا على أنَّ عاملَه ليس مِن حِزْبِ الشّيطانِ؛ وإنَّما مِن حِزْبِ الرَّحْمنِ؛ وفي هذا تفخيمٌ لشأنِ العملِ الصّالحِ أيِّ عمَلٍ صالحٍ.

سِرُّ حذفِ الموصوفِ وإقامة الصفة: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، مقامه:

مَـن يُـعـادي الشّيطانَ يضَعُ صلاحَ الأعمالِ هدفًا أمامَه

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةُ موصوفٍ محذوفٍ؛ يدلُّ عليه لفظُ الفعلِ؛ والتَّقديرُ: (وعملوا الأعمال الصّالحات)؛ بدليلِ وصفِ العملِ بالصَّلاحِ صراحةً في بعضِ آي الذِّكرِ الحكيمِ؛ وفي الحذفِ هنا إشارةٌ إلى قوّة ظهورِ معنى الصِّفةِ في الموصوفِ؛ حتَّى كأنَّ الموصوفَ يُعْرَفُ بها، وهي تدلُّ عليه؛ لأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا يحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ ومَشَقَّةٍ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ الصَّلاحُ في الأعمالِ قويًّا.

بلاغةُ (أل) التّعريفيّةُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

مَـنِ اتَّـخـذَ الشّيطانَ عَدوًّا ميَّزَ بينَ القبيحِ والحَسَن

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للجنس؛ فلا يتحمَّلُ السّياقُ أنْ تكونَ للاستغراقِ، ولا أنْ تدُلَّ على الكمالِ؛ فأعمالُ حِزْبِ اللهِ الّذينُ حالُهم ضدُّ حالِ حِزْبِ الشّيطانِ مِن جِنْسِ الأعمالِ الصّالحاتِ؛ لأنَّ الغرضَ المُراعَى هنا كونُ الأعمالِ الصّالحاتِ علامةً على مُخالفةِ الّذين آمنوا لحِزْبِ الشّيطانِ؛ مِنَ الّذين كفروا.

نكتةُ جمعِ القِلَّةِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

قليلُ المُجاهِدِ لا يُقالُ لهُ قليلٌ

نظَمَ القرآنُ صفةَ مفعولِ فِعْلِ العمَلِ جَمْعَ قِلَّةٍ كموصوفِها؛ والتّقديرُ: (وعملوا الأعمال الصّالحات)؛ فأمّا نظمُه جَمْعًا

فللإشعارِ بأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا يفتقرُ إلى عمَلِ الأعمالِ الصّالحاتِ، فلا بُدَّ في سياقِ الإبلاغِ في التّحذيرِ مِنَ الشّيطانِ بالتَّصريحِ بالجمعيَّةِ، وأمّا كونُه جَمْعَ قِلَّةٍ فللتَّنْبيهِ على أنَّ القليلَ مِن أهلِ الإيمانِ في هذا السّياقِ عظيمٌ؛ لأنَّ فيه مشَقَّةً بالغةً؛ إذ يُلْحَظُ فيه اتّخاذُ الشّيطانِ عدوًّا.

سِرُّ اخْتِصاصِ الإيمانِ بِذِكْرِ العملِ معَه:

مَـنْ عـرَف اللهَ عرَف الشّيطانَ؛ فـالأوّلُ حبيبُه، والآخَرُ عدوُّه

لم يجئِ النَّظْمُ الحكيمُ بذِكْرِ عملِ السّيِّئاتِ معَ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لأنَّ كلَّ سيئةٍ بعدَ الكفرِ هيَ دونَه؛ فلا ذنبَ أقبحَ مِن ذنبِ الكفرِ؛ فهو المقصودُ الأعظمُ والأعلى والأكرمُ للشّيطانِ؛ وإنْ كان على أدنى مستوًى مِن مستوياته؛ كما يدلُّ عليه نظمُه فعلًا ماضيًا في صورة صلةِ موصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ولو تحقَّقَ فقد تحقَّقَ له كلُّ شيءٍ، ولو لم يتحقَّقْ فكلُّ وساوسِه وحيَلِه بإيقاعِ العبدِ في آثامٍ أخرى لا قيمةَ لها عندَه؛ فقد كفى بالكفرِ دليلًا عظيمًا على أنَّ الإنسانَ مِن حِزْبِ الشّيطانِ!، وأمّا الإيمانُ فهو ما وقَر في القلبِ، وصدَّقَه العملُ؛ فكانَ عملُ الصّالحاتِ إبرازًا لِما يدلُّ على اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا؛ إبلاغًا في بيانِ أنَّهم أعداؤُه، وأنَّه عدوُّهم؛ وهذا مؤسَّسٌ على أنَّ الإيمانَ ينمو بالعملِ الصّالحِ، فكأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا ينمو بعملِ الصّالحاتِ كما ينمو بهِ الإيمانُ؛ فالكُمَّلُ في الإيمانِ ومعرفةِ اللهِ تعالى كُمَّلٌ في اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، ومعرفةِ طرائقِه التي يوقِعُ بها العبادَ في مواطنِ الزَّلَلِ، وذُكِرَ العملُ الصّالحُ مع الإيمانِ أيضًا؛ لأنَّ له أثرَه؛ لاقترانه به، قال الرّازي: "﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: قد ذُكِر تفسيرُه مرارًا، وبُيِّن فيه أنَّ الإيمانَ في مقابلته المَغفرةُ، فلا يُؤَبَّدُ مؤمنٌ في النّارِ، والعملُ الصّالحُ في مقابلتِهِ الأجرُ الكبيرُ"[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266.

بلاغةُ اللامِ في ﴿لَهُم﴾:

مِـنَ الإحـسـانِ الاعتدادُ بمَشَقَّةِ أهلِ الإيمانِ

مَهَّدَ القرآنُ الحكيمُ للقصرِ بطريقِ التّقديمِ بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ بما فيه مِن (اللّام) التي هي للاختصاصِ، ودخولِها على ضميرِ الَّذين آمنوا؛ بما يُشْعِرُ بمعنى الإضافة؛ وفي ذلك بملاحظةِ القصرِ إبلاغٌ في تقرير المغفرة والأجر الكبير للَّذين آمنوا؛ كأنَّ ذلكَ يُلاحِظُ الشِّدَّةَ التي عانَوها وهم يُخالفونَ الشّيطان، ويُبرزون عَداوتَه باتِّباعِ دينِ اللّه ورَسولِه.

نُكتةُ تَقْديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُم﴾:

أيُّ فَرْحَةٍ تَغْمُرُ الـذيـنَ خالَفوا الـشّـيـطـانَ وعـــادَوْهُ يـومَ القيامةِ؟!

قدَّم القرآنُ العظيمُ المسندَ على المسنَد إليه، وما عُطِفَ عليه وصفتِه في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على قصرِ المغفرةِ والأجرِ الكبيرِ عليهم، أي: على الَّذين آمنوا؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ فمَن لم يكُن مِنَ الذين آمنوا لم يكُن له مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ؛ وسلَك القرآنُ طريقَ القَصْرِ؛ لكونِه الألصقَ بغرضِ المقارنةِ بينهما، وبطبيعة حالِهما؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييزِ، والتّوكيدُ الذي يشتملُ على القصرِ إبلاغٌ في التّرغيبِ في الإيمانِ وعملِ الصّالحات؛ بعدَما يُطمئنُ النُّفوسَ ويُحقِّقُ فيها المعنَى، ولَمّا كان القصرُ تَشْديدًا في تقريرِ حُكْمِ جملتِه كانَ يُلاحِظُ مخالفةَ شِدَّةِ عداوة الشّيطانِ، والقصرُ بهذا الطّريقِ فيه تذكيرٌ بنظيرِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؛ وأنَّ الَّذين آمنوا فقِهوه، وعمِلوا بمُقْتضاه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالمغفرة:

كـيـف نَـخْـذُلُـه تـعـالى؛ وهـو يُـعـيـنُـنـا على اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا؟!

جعَل القرآنُ الحكيمُ مِن جزاءِ الذينَ آمنوا (المغفرة) في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ نظرًا إلى أنَّ أعظمَ مصايدِ الشّيطانِ ما يَعْرِضُ للإنسانِ خطأً وجهلًا مِنَ العِصيانِ؛ لِما له مِنَ النُّقْصانِ؛ ليَجُرَّه بذلك إلى العَمْدِ والعُدْوانِ؛ فوعَد ربُّنا سبحانه الواحدَ مِن أهلِ

الإيمانِ؛ بأنْ يَصونَهُ مِن أنْ يَمَسَّهُ العذابُ؛ داعيًا له إلى طاعتِه، وإزالةً لخجلتِه؛ فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: سَترٌ لذنوبهم؛ بحيثُ لا عقابَ ولا عتابَ؛ وذلك مُعجَّلٌ في هذهِ الدّارِ، ولولا ذلك لافْتَضَحوا، وغدًا؛ ولولا ذلك لهلكوا[1]، وبينَ الإيمانِ القلبيّ الصّادرِ منهم والمغفرةِ الخفيّةِ تناسبٌ؛ إذِ الإيمانُ سببٌ لنَيلِ الغُفران؛ إذ لا يخلو إيمانٌ من قلَّة عمَلٍ أوْ صُدور جِناية؛ لكنَّ الإيمانَ والثّباتَ عليه سببٌ لغُفرانه.

سِرُّ التَّنْكيرِ في ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾:

مخالفةُ الشّيطانِ سببٌ في مغفرة الله

نظَمَ القرآنُ ما وعَد اللّهُ به أهلَ الإيمانِ مِنَ المغفرة نكرةً بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالةِ على عظَمتها، أي: مغفرةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه تعالى لم يُمكِّن عدوَّهُم الشّيطانَ منهم، وسهَّلَ لهم طريقَ الانضمامِ لحِزْبِه تعالى؛ فهي شيءٌ عظيمٌ فَخْمٌ في أبصارِ الَّذين آمنوا وبصائرِهم، والتّنكيرُ مشعِرٌ بالامتنانِ والإحسان.

نكتةُ تَقْديمِ المغفرة على الأجر:

مَن عامَلَ عبادَه بالتَّخْليةِ بعدَ التَّخْليةِ كانَ حبيبًا لهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على قوله: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ مِن عطفِ المفرداتِ بعضِها على بعضٍ، وقُدِّمتِ المغفرةُ على الأجرِ الكبيرِ؛ إحْسانًا إلى الَّذين آمنوا؛ بأنْ تسبقَ لهمُ التَّخْليةُ على التَّحْليةِ؛ قال البقاعيُّ: "ولَمّا محاها عيْنًا وأثَرًا أثبتَ الإنعامَ؛ فقال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾"[2]، وعطْفُ الأجرِ الكبيرِ على المغفرةِ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لدَفْعِ توهُّمِ قصرِ الجزاءِ على كونه مغفرةً فقط؛ لأجلِ الذُّنوبِ التي يفعلونها[3]، كما أنَّ بينَ العمَلِ الصّالحِ والأجرِ الكبيرِ تناسُبًا؛ إذِ الإيمانُ سببٌ للمغفرةِ، والعملُ الصّالحُ سببٌ لنيلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(3) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.

الأجرِ الكبير، كما تناسبَ الجمعُ بينَ الصّالحات معَ وصفِ الأجرِ بأنَّه كبير، إذ كثرةُ الصّالحات توصِلُ إلى الأجرِ الفَخْم.

علّةُ التّعبيرِ بلفظ (الأجر):

جعَل القرآنُ الحكيمُ مِن جزاءِ الّذين آمنوا الأجرَ؛ فقال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وفي ذِكْر الأجرِ اعتدادٌ بعملِ الّذين آمنوا؛ لأنَّ الأجرَ الكراءُ على العمَل، وقال الخليلُ: الأجرُ جزاءُ العملِ، والأجرُ أيضًا جَبْرُ العَظْم الكسير؛ فأُجْرةُ العاملِ كأنَّها شيءٌ يُجْبَرُ به حالُه فيما لحِقَه مِن كَدٍّ فيما عمِلَه[1]، وإذا تذكَّرنا أنَّ ذلك الاعتدادَ في مواجهةِ عداوةِ الشّيطان الشّديدةِ أبْصَرْنا في الاعتدادِ إعانةً عظيمةً للّذين آمنوا على اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، والإجمالُ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ دونَ تعيينِ هذا الأجر؛ لتفخيمِه وتعظيمِه[2].

سبحانَ مَن يكافئُ على الفرضِ والواجبِ!

سِرُّ تنكيرِ ﴿وَأَجْرٌ﴾:

نظَم القرآنُ معنى (الأجر) نكرةً؛ فقال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على عِظَمِه وفخامتِه؛ في نورِ سياقِ اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، وأنَّ أعمالَ الّذين آمنوا ذاتُ مُجاهدةٍ ومَشقَّةٍ، ووصفُ الأجر بـ﴿كَبِيرٌ﴾، والمعنى: أنّه أجْرٌ "يجِلُّ عنِ الوصفِ بغيرِ هذا الإجمالِ؛ فمنه عاجلٌ بسهولةِ العبادة ودوامِ المعرفةِ، وما يرونه في القلوب مِن وراءِ اليقينِ، وآجِلٌ بتحقيقِ المسؤول مِن عظيم المِنَّة، ونَيْلِ ما فوقَ المأمولِ في الجنَّة"[3].

سبحانَ مَن يوفِّقُ للخيرِ، ويَجْزي عليهِ جزاءً عظيمًا!

علّةُ التّعبير بـ﴿كَبِيرٌ﴾:

اشتملَ قولُه تعالى على توصيف الأجر بأنّه كبير وذلك في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وإنّما عبَّر تعالى به؛ ليَصْغُرَ في أبصارِ الّذين آمنوا وبصائرِهم الشّيطانُ، وعداوتُه الشّديدةُ، وحِزْبُه،

مَن عَظُمَ اللهُ في قلبِه حقُر الشّيطانُ فيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.

والحياةُ الدُّنيا، ويَعْظُم فيها الإيمانُ وأهلُه؛ لأنَّ مادَّة هذا اللَّفظ تدورُ على خلافِ الصِّغَرِ؛ فالشّيطانُ صغُر عندهم فاحتقروه، وهم قد عظَّموا اللّه تعالى[1].

دلالةُ صيغةِ المبالغةِ:

لن يغلبَ حقيرٌ عظيمًا

﴿كَبِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على وزن: (فعيل)؛ وهو مِن صيَغِ المبالغةِ؛ ففيه إشارةٌ إلى سَعَةِ ذلك الأجرِ، وأنَّه يُحيطُ بأعمالهم الصّالحاتِ، ولا يكافئها فقط؛ ففيه امتنانٌ عظيمٌ؛ يُقابِلُ به ربُّنا ﷻ كيْدَ الشّيطانِ وشِدَّةَ حِرْصِه على إدخالِ النّاسِ النّارَ، ومُلازمتِهم النّارَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»